الشباك المنكوب

لقاءٌ فاتر لم ينل منه بطائل عرَّج من بعده على السوق .. استبدل المنديل بعلبة سجائر .. لقد تخلّى عن ذكرياتٍ جميلة، فما المرجو منها وقد تنصَّل منها الطرف الآخر، كما أنَّها ذكرياتٌ تحمل بين طياتها صفحات سوداء نُقشت حروفها بيد عاهرة خدعته وشرَّدته ..لم يرغب بمزيد من الألم ففعل ما فعل .. إلا أنَّ منديلي لم يمكث طويلا سرعان ما وقع بين يديْ عروسٍ تستعد الليلة لزفافها .. ابتاعته بثمن بخس .. لم يقِّدر البائع قيمته الحقيقية بينما قدَّرت هي .. رموزه العاطفية .. شكله الانسيابي وبريقه الذي أضفى عند ضفتيْ مُقلتيها أسرار سِحْرٍ أبدي .. توجَّهت به حالا إلى المصبغة وبعد ساعة استلمته جديدًا من جديد .. عطَّرته .. خبَّأته داخل علبة بلون العنب الأحمر القاني تزيِّنها مجموعة متناثرة من الفراشات والزهور، ثمَّ أحكمت إغلاقها بعقدة بيضاء وقلب ذهبي في المنتصف تماما كالخاتم الذي ترتديه .. تتأمَّله من حين إلى حين.

زواج تقليدي إلا أنها لم تسمح له بالتقدُّم لخطبتها إلا بعد ما سمعته عنه .. إنه .. رومانسي حالم .. يكتب القصص ويرويها .. ولأجل تلك الفكرة التي لطالما عانقتها ألغت مشاريعها المستقبلية .. التقت به ضمن

جلسة شرعية .. وجه عاشق وصوت شاعر .. وهي إلى جانبه داخل إطار وسط قلبها الذي تشبَّث بتلابيبه لا ينتزعها منه نازع ..لقد أسرها وهي الآن تنتظر بفارغ الصبر أن يفُك أسرها بما في جعبته من قصص وروايات.

غادر العروسان ساحة العرس مخلِّفين وراءهم الضيوف مُستبشرين مُبتهجين .. كانت تتوقَّع منه أن يأخذها إلى فندق ذي خمس نجوم، وبدلا من ذلك اصطحبها مباشرة إلى منزله .. لم يفتح لها الباب .. ولج إلى الداخل وبعد لحظات أطل: هيا .. ماذا تنتظرين هيا .. خرجت .. أغلقت باب السيارة ثمَّ خلفه .. صعد الدرجات، فتوقَّفت، كانت تتأمَّل منه أن يحملها بين ذراعيه، أن يرخيها فوق سرير مكسوٍّ بالزهور وسط غرفة تعبق بأريج الشموع التي تختلج خجلا قبل أن تحمرَّ خجلا .. لم يحملها بين ذراعيه وتبعت صوته إلى الغرفة التي لا تمتُّ بصلة لأي شيءٍ ممّا توقَّعت .. جلست وجلس بجانبها .. صَمْتٌ لثوانٍ ثُمَّ وبتأفُّفٍ قال: بالله عليك ما نفع هذا الإكليل الذي يغطي وجهك وكأنّي أراك للمرة الأولى .. أوف .. عادات سخيفة وتقليد أعمى .. أبعده برعونة وبسخرية أردف: آه .. إنه أنتِ .. كيف لم أعرفك .. أشش .. هزَّ رأسه مُمتعضًا ثُمَّ هَمَّ بتقبيلها فابتعدت .. كانت تتوقَّع منه حديثًا بينهما تتداوله النجوم لا تَمَلُّ منه حتى تَمَلْ .. إلا أن النجوم لم تكن هناك تلك الأمسية .. لقد سمحت لليل البهيم أن يتغشّاها

.. علِمت النجوم .. فتراجعت .. حاول مرة أخرى ليجد منها ما كان منذ قليل: ما بك .. مالذي أصابك .. هل أنتِ خائفة فهزَّت رأسها: حقًّا خائفة فأومأت لـه: إذن، فلِمَ تزوجتِني طفلتي الغالية .. هل أرغمك أحد؟

ــ نفت بهمهمة خفيَّة ..

ــ إذن، فلِمَ تزوجتِني؟ وعندما لم تجبه أجاب بالنيابة عنها: طفلتي العزيزة .. الزواج ليس نزهة .. كان الأجدر بك البقاء مع دُماك إن كنت لا تستطيعين تحمُّل تبعات ما أقدمتِ عليه .. يا إلهي وأنا الذي كُنت أترقَّب .. فتح زر قُمِّ ردائه ثُمَّ جعل يدعك بشدة أنفه وجبينه جيئةً وذهابا[1] يحاول التخلص من شحنات سلبية هو في غنى عنها: هل أنت بحاجة إلى بعض الوقت؟

ــ .....

ــ فصرخ بها يُعيد السؤال ذاته ..

ــ أجل، بارتباك لم يُغادرها وبخوف يَستعر .. خلع اللحاف من تحتها بهمجية وخلد إلى النوم .. أسندت ظهرها إلى جانب السرير ترمق الشباك .. لكُلِّ فتاةٍ منّا .. شُبّاكها الخاص بها ..

---

(١) جيئة وذهابا: صعودًا ونزولا

التصميم ذاته ولكن بمفتاح خاص ..

كلّما تزَّمت الواقع فارضًا لعناته ..

فتحت الشباك على مصراعيه ..

إما أن تُبرز أجنحتها البيضاء .. ترفرف هناك ..

وإما ..

أن تلتقط بيدها إحدى القطع ..

تشكِّلها أنّى شاءت وكيفما أرادت ..

جعلت ترمق بنظرات شاردة شبّاكها المنكوب ..

تناثر الريش ..

وتحطَّمت القطع ..

أين من كنت أظن ..

يبدو أني خُدعت ..

ــ عند الظهر رنَّ جرس الهاتف .. كانت نائمة وكذلك هو: ألو ..

ــ كيف حالك بني، أنا خالتك، ثمَّ بدأت تعبِّر عن فرحتها بأسلوبها الخاص ..

ــ خذيه .. إنه لك .. بحث عنها ليجدها بجوارهِ عند طرف السرير : هيه .. هيه .. استيقظت .. إنها والدتك ..

ــ أمسكت السماعة .. تستمع وتجيب إجابات مُقتضبة .. لم تستسلم لفكرة البارحة، غفت بعد أن أقنعت نفسها بأن رجل البارحة لن يكون اليوم .. سيوقظها بقبلة وبزهرة تُداعب وجنتيْها .. كيف وقد أيقظها كمن يوقظ أحد صَحْبِه .. سكنت الفكرة عشَّها واطمأنت وانحسرت محاولاتها أمام صرخاته .. ودَّعت والدتها وأسرعت إليه .. ناولها ملابسه فهو يخشى عليها من أن تقع على أرضية الحمام .. وعندما همَّ بخلع ملابسه الداخلية .. ارتجفت .. استدارت وأغلقت عيْنيْها بإحكام: خذي .. خذي.. والآن ضعيها في السلة إلى جانب التلفاز ثمَّ عودي .. خرجت ولم تعد .. هدَّدها إن لم تعد فإنه سيخرج إليها عاريًا .. جزعت .. ألقت الملابس حيث أمر ومن ثمَّ إليه مُنكِّسة رأسها كي لا تراه: وأخيرا .. تعالي .. ادعكي لي ظهري جيِّدا فأنا لم أفعل منذ مدة .. اقتربت من المغطس .. شدَّها من ذراعها: هيا .. ما بُالك تبدين كالسلحفاة .. انتهت: انتظري .. ألا ترغبين بمشاركتي .. كلماتُه المرعبة جعلتها تجري خارجًا .. تأزَّر منشفته .. كانت حينها جالسة عند الطرف البعيد من المكان حيث هُوَ .. مُنزوية بأفكارها، بذعرها وتوترها عندما سألها: هل أنت مُستعدة الآن؟ شخص بصرها نحو المُقبل بخطى سريعة إليها .. حاولت الهرب، فحشرها في الزاوية ..

لطالما تخيَّلت تلك اللحظة ..

أن تلتصق بالجدار .. أن تكون بين ذراعيه ..

أن يُطيل النظر إليها .. أن ينسى أمر شفتيه ..

أن يتحدَّث شوقُه سِرًّا .. أن يُفتضح سِرُّ عينيه ..

أن يدنو منها رُويدًا رُويدا ..

أن تحمرَّ خجلا ..

أن تتصاعد نبضاتها ..

ألا تجد حلا فتستسلم إليه ..

لم يُطل النظر إليها .. ولم ينس أمر شفتيه ..

لم يتحدَّث شوقُه سِرًّا .. ولم يُفتضح سِرُّ عينيه ..

لم يدنُ منها .. رُويدًا رُويدا ..

لم تحمرَّ خجلا ..

تتصاعد نبضاتها .. أجل ..

أمام اندفاعه فجلست أرضًا ..

لم يزل مُستندا بكفيَّه بأنفاس تتتابع على عجل كما هي حتى ..

رطم الجدار بقبضته .. ودون أن ينبس ببنت شفة .. ارتدى ملابسه وخرج .. ما إن اطمأنت لرحيله حتى هرعت إلى الباب فأوصدته ثمَّ إلى السماعة .. اتصلت على قريباتها تتحقَّق منهن حقيقة حديثهن عنه بشكل لا

يبعث على الريبة .. أكَّدوا لها صحة ما قالوا .. لم يَرَوْ ذلك بأمِّ أعينهم، بل هذا ما تناقلته أسماعهم .. جلست لساعات تقلِّب الأمور وتبحث له عن مسوِّغ لأفعاله .. انتصبت أمام المرآة .. ثوب زفافها البالي .. شعرها المنكوش ومكياجها الذابل: "يبدو أنني من منحه الأسباب كي لا يكون على سجيَّته" .. قررت منحه فرصة أخيرة .. وعند المساء عاد .. لم يعرِّج عليها، بل جلس في الأسفل يشاهد التلفاز يعبِّر بذلك عن ضيقه وامتعاضه .. نادته مرة ثُمَّ أخرى فاستدار .. تفاجأ بها .. شعرٌ مُسرَّح .. وجهٌ مُضيء .. جيبٌ معطَّر .. قوامٌ جذّابٌ يشتمله[1] روبٌ حريري قصير كشف عن ساقين برّاقتين، بل كشف عن أحجار بيضاء اكتنفتها ابتسامة عريضة تتَّسع كلَّما قلُصت المسافة بينهما .. بابتسامته العريضة مُشيرا بإصبعه إليها: نعم .. هذه هي المرأة من كنت أريد .. ما إن أوشكت جملته على الانتهاء حتى انتهى عند مبسمها ..

" ليس هكذا .. "[2]

ــ ابتعدت وقبل أن تتقلَّب ملامحه قالت: لنصعد إلى الأعلى ..

---

(١) مشتملا: متغطيا بكسائه

(١) استهجان خفي

ــ حسنًا .. أمسك يدها وجرَّها خلفه ..

" ليس هكذا .. "

وولج بها إلى غرفة تعبق برائحة الشموع بألوان الزهور المتناثرة قد أَنس بها المكان .. وطاولة زجاجية في المنتصف .. أطباق شهية وعلبة محكمة الإغلاق عند الطرف .. لم يكترث ..

" ليس هكذا .. "

ــ شدَّ على ساعديها وأدناها منه يُعيد الكرة فابتعدت: لنتناول الطعام أولا ..

ــ حسنا ولكنَّك لن تُفلتي مني بعدها .. أنهى طبقه حالا تناول مشروبه: هيا ..

" ليس هكذا .. "

أدني لها الكرسي .. اسمح لها بالجلوس ..

اجلس أمامها وأطعمها بيدك ..

تغزَّل بجمالها تحت ضوء الشمعة ..

اخجل لخجلها ثم انهض ..

أخرج عقدا من جيبك .. ألبسها إياه .. ثمَّ اتكأ أمامها ..

داعب .. خطوط يديها .. .. اجعل أنفاسك تلامس راحتيها ..

داعب عنقها .. خصلات شعرها .. وجنتيها ثمَّ إليها ..

لا تُبعد ناظريك عنها بل منها وإليها ..

اجعلها تشعر برغبتك ..

بأنها أميرة قلبك ..

قل كلمة واحدة .. اجعلها صادقة:" أحبك " ثم ادنُ منها ..

إنها مستعدة الآن وقد آن أوان تلك القُبلة التي طال انتظارها ..

لقد تبرأت منه ..

رومانسيته التي لم تكن والشاعرية التي ولَّت مُدبرة وكلمات الحُبِّ التي لم ينطق بها عندما نهض: هيّا، ولمّا لم تنهض أرغمها .. نزع روبها، فلمّا رأى ثوبها الذي فضح مفاتنها لم يتمالك نفسه .. حملها .. قذفها فوق السرير وكأنّها قطعة أثاث مُستعملة ثُمَّ وكالفريسة انقض عليها .. مُستسلما لفظاظته مُنقادًا بلا إرشاد لرعونته .. حاول إتيانها بكل الطرق وهي .. تحاول الفرار ..

ليس هكذا ..

أن تُصبح بربريًّا .. حبيس غرائزك الحيوانية ..

أن تعميك شهواتك عن رؤية المخلوق الضعيف الذي يحاول جاهدًا إرضاء كومة رغباتك ..

ليس هكذا ..

لستُ من تظن ..

لستُ ضالتك ..

صرخت به:كفى .. كفى .. ليس هكذا فتوقَّف: قالوا لي بأنك رومانسي حالم .. يكتب القصص ويرويها .. لقد رأيت ذلك في وجهك وأحسسته في صوتك .. لقد ظننت بأني ..... ولذلك تزوَّجتك .. قالت ذلك وهي تنشج بالبكاء ..

ــ إجابة متأخرة لسؤال طُرح منذ البداية .. ابتعد أكثر: من أخبرك ذلك؟

ــ قريباتي ..

ــ يبدو أنهن صدقن تلك الإشاعات التي كانت تدور حولي بسبب مظهري .. يبدو أنّ ما جرى بيننا لم يكن سوى مجرد .. سوء فهم .. فأنت لست المرأة التي أُريد كما أنني لست من تظنين .. فأنا لا أثق بتلك الأمور التي تؤمنين بها .. هدوؤه جلب لها السكينة .. ستر صدره العاري: حسنًا إذن .. أنتِ .. طالق .. طالق .. طالق، ثُمَّ غادر ..

لقد كان تصرفا مُتسرعا منه .. ولم العجب! فهو قرار صادر من شخص الزواج والطلاق عنده سيان .. كلعبة ورق خسرها، غير نادمٍ، بإمكانه تكرارها ..

و بالرغم من كونها عروسًا جديدة تطلَّقت حديثا ستدور الألسن حتمًا حولها .. فهي لم تكترث ..

ففراقه هو الهَمُّ الثقيل الذي انزاح عن كاهلها ..

شعرت بروحها تعود ..

بابتسامتها تعود ..

وبشباكها المنكوب يُفتح من جديد ..

ربما أنها فقدت الأمل بالعثور على فتى أحلامها ..

إلا أنها تُفضِّل ..

أن تبقى حالمة على ألا تكون فاقدة للإحساس ..